

الفصل الثالث عشر

العودة إلى الوطن

رحبت الجماعة الإسلامية في المدينة بالنساء والرجال الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة وعاشوا هناك مدة خمس عشرة سنة تقريباً، كان من بينهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه (الذي عاد وقد تزوج أسماء بنت عميس وأصبح أباً لثلاثة أطفال). وعادت أيضاً أم حبيبة بنت أبي سفيان التي تم عقد قرانها وناب فيه النجاشي عن محمد صلوات الله عليه، واستقر بها المقام في بيتها قرب المسجد، واستمرت الحياة اليومية وظل عدد المسلمين يزداد ازدياداً مطرداً، الأمر الذي دفع النبي صلوات الله عليه لزيادة مناسبات التثقيف بالدين وأن يعهد إلى أخلص صحابته بهذه المهمة.

وكانت الأعمال القتالية تندلع هنا وهناك، وظل محمد صلوات الله عليه يرسل جماعات صغيرة لتسوية الأمور، لكن كانت الحاجة تدعو في بعض الأحيان إلى قتال قبائل بقيت مصممة على تحدي سيطرة المدينة.

أسامة بن زيد رضي الله عنه

وكان محمد صلوات الله عليه قد أرسل حملة إلى قبائل بدوية شمالية، لاسيما قبيلة بني مرة التي ظلت تهاجم المزارعين اليهود الذين كانوا يعملون في واحة فدك، التي كانت خاضعة لسلطة النبي صلوات الله عليه. وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة وقتل جميع

أفراد الحملة الثلاثين، وقرر النبي ﷺ إرسال جماعة أخرى تضم مثي رجل، بمن فيهم أسامة بن زيد ؓ، الذي كان عمره سبعة عشر عاماً فقط⁽¹⁾.

كانت المعركة صعبة حيث إن عدداً من القبائل قد انضموا إلى بعضهم على أمل إلحاق الهزيمة بالمقاتلين المسلمين والاستيلاء على واحة فدك وثرواتها، غير أن الوضع انقلب لمصلحة المسلمين، وقد سخر أحد أفراد قبيلة بني مرة من أسامة ؓ وصغر سنه، ولم يستطع أسامة ؓ لجم حدة غضبه فقرر خوض القتال على الفور ضد الرجل الذي استهان به، وبما أن موقف البدوي كان ضعيفاً فقد فضل الفرار على مقاتلة أسامة ؓ. وقد دفع الغضب أسامة ؓ إلى ملاحقته متجاهلاً أمر قائد الحملة بأن يبقى الجميع معاً في جميع الأوقات، وقد استطاع أسامة ؓ اللحاق بعده وألقى به أرضاً وجرحه، فصرخ البدوي: «أشهد أن لا إله إلا الله!» لكن أسامة تجاهل هذا وقلته، وعندما عاد إلى المعسكر وروى القصة استنكر قائد الجماعة وبقيّة الجنود سلوكه، وأدرك أسامة ؓ فداحة خطئه وعزل نفسه إلى حين عودتهم إلى المدينة.

ذهب أسامة ؓ على الفور لرؤية النبي ﷺ الذي رحب به بحرارة شديدة في أول الأمر. على أنه عندما أخبره أسامة ؓ عن المبارزة، أعرب النبي ﷺ عن استنكاره الشديد وسأله: «أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟» فأجاب أسامة أن البدوي لم يتفوه بالشهادة إلا ليتجنب القتل على يد أسامة، فقال له النبي ﷺ: «أو شققت عن صدره لتعرف إن كان صادقاً أو كاذباً؟» أصيب أسامة ؓ بالجزع وخشي ألا تغفر خطيئته.

على أن النبي ﷺ سامحه، بعد أن لقنه درساً عن الطريقة التي يجب أن يتعامل بها المرء مع الناس وأسرار قلوبهم، في الحرب أو السلم.

كانت شهادة البدوي تقتضي ألا يتعرض للقتل على يد أسامة رضي الله عنه، فإذا كان صادقاً، كان من البدهي أنه يجب على أسامة رضي الله عنه الإبقاء على حياته، وإن لم يكن صادقاً، فإن قوله كان عبارة عن أنه ينشد السلام والرحمة، في مثل هذه الحالة، كان الوحي قد أهاب بالمسلمين بأن يتذرعوا بالفطنة وضبط النفس وأن ينشدوا السلام.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾ (2).

فالبدوي عندما رأى الموت طلب السلام لكن أسامة الذي أعماه تصميمه على الدفاع عن شرفه في هذه الدنيا (حيث إنه تعرض للسخرية) عاد إلى الممارسات القبلية التي كان يجب فهمه للإسلام أن يهذبها، فمهما كانت نظرتة إلى النوايا الكامنة وراء نطق عدوه بالشهادة، فما من شيء يمكن أن يبرر تصرفه أو موقفه، وقد عاهد أسامة رضي الله عنه نفسه ألا يطلق العنان لنفسه بتلك الطريقة وأن يتصرف بعد ذلك بفطنة واحترام، وسوف نرى أن النبي ﷺ سوف يعهد إليه بعد ثلاث سنوات - عند اقتراب انتقاله من هذه الدنيا - بالوصايا والدروس التي تشكل أخلاق الحرب الإسلامية.

إن ما في القلوب يتجاوز معرفة البشر، وقد كان النبي ﷺ نفسه مثلاً في الحرص والتواضع عندما كان الأمر يتعلق بالحكم على الأفراد الذين كان صدقهم ونواياهم موضع شك، وكان يعرف حق المعرفة أنه يوجد الكثيرون من المنافقين حوله، لكنه لم يتخذ أي إجراء إزاءهم، فقد ظل حذراً وفي بعض الأحيان محتسباً، لكنه كان يتجنب إصدار أي حكم نهائي، وأوضح مثال على ذلك كان عبد الله بن أبي بن سلول، الذي كذب عدة مرات، ثم انشق عن المسلمين قبل معركة أحد وبقي يحافظ على علاقاته مع أعداء الجماعة الإسلامية، لكن النبي ﷺ لم يتخذ أي إجراء انتقامي بحقه هو وأصدقائه، سوى أنه كان يستبعده من الأوضاع الحساسة أو الحملات، بل إنه صلى عليه عندما توفي بعد مدة قصيرة من عودته من غزوة تبوك، على الرغم من احتجاج عمر الشديد.

وعلاوة على ذلك فقد نهاه الوحي عن الصلاة على المنافقين المشهورين، برداء السمعة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا نُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (3).

ومع أن هذه الآية التي تبدو صارمة وواضحة بشأن الموقف الذي يتعين اتخاذه من المنافقين عند موتهم، إلا أنه يعبر بخلاف ذلك عن رسالة صارمة بشأن طريقة التعامل معهم في شؤون الحياة اليومية وحتى آخر لحظات حياتهم، فما من شيء يبرر إصدار حكم نهائي على نفاقهم طيلة حياتهم، وتجلى السلوك المناسب في المثال الذي ضربه النبي ﷺ الذي لم يسمح لنفسه بإصدار حكم عن أي منافق طيلة حياة ذلك

المنافق، إذ إن كل شيء يظل ممكناً حتى آخر النهاية فيما يتعلق بتحول القلب وصدقه، وقد نهى الله عن الصلاة عليهم فقط بعد موته، حين لم يعد بالإمكان حدوث العكس وأصبح من الواضح أنهم عاشوا وماتوا في النفاق والخيانة والأكاذيب (4).

ماريا

استمر النبي ﷺ في حياته الخاصة التي كانت تفيض منه أن يولي اهتماماً خاصاً لزوجاته، حيث إنه كانت تحدث في بعض الأحيان توترات حادة ومزعجة بين النساء أو مع أسر كل منهن. أما هو فقد ظل يسترضي الجميع ولا يجب إزعاج أي من زوجاته. وقد روت عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ كان موجوداً دائماً ومنحرفاً في حياته المنزلية وأنه كان يراعي زوجاته ويساعدهن في عملهن المنزلي وكان «يخيط نعله ويرقع ثوبه» ولا يتوقف إلا حين يسمع الأذان ويذهب إلى المسجد (5). وكان في جميع الأحوال، حتى في شهر رمضان، لطيفاً ورقيقاً وودوداً بشكل خاص، وتؤكد روايات عديدة عن عائشة - رضي الله عنها - بشكل خاص، هذا الجانب من شخصيته الذي كانت زوجاته يقدرنه فيه ويُشَدْنَ به.

لقد نجم عن الحياة في المدينة، حيث كانت النساء أكثر وجوداً أو حيوية مما كانت عليه الحال في مكة، والوضع الاقتصادي الذي تحسن، عدة تغييرات في سلوك زوجات النبي ﷺ. وهذا أزعج عمر رضي الله عنه الذي كانت زوجته لا تتردد في مراجعته، خلافاً لعادات نساء مكة، وعندما عاتب عمر رضي الله عنه زوجته، أجابت بأن ابنتهما حفصة - رضي الله عنها - ذاتها، كانت تقوم بنفس الطريقة بمراجعة النبي ﷺ، زوجها، الذي كان يقبل ذلك وأن

على عمر رضي الله عنه أن يقبل مواقف مماثلة، وقد ذُهل عمر رضي الله عنه وانطلق إلى ابنته ليسألها فأكدت له أنها لم تكن هي وبقية الزوجات يترددن في التعبير عن آرائهن ومجادلة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهن كنّ يراجعنه بكل حرية وأنه يقبل هذا الوضع، فذهب عمر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لينصحه بإصلاح أوضاع حياته الخاصة على الفور، فأصغى النبي صلى الله عليه وسلم إليه وابتسم لكنه لم يفعل شيئاً.

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عود زوجاته على اهتمامه بهن والحوار معهن، كان يصغي إلى نصيحتهن وظل طيلة حياته محافظاً على موقف الاحترام الذي كان يظهره لخديجة رضي الله عنها. وكان باستطاعة زوجاته التفريق بين دوره بصفته نبياً وحياته بصفته زوجاً وإنساناً، بل إن عائشة - رضي الله عنها - كانت قد غضبت من موقف النبي صلى الله عليه وسلم وشكوكه بعد حادثة الإفك، وعندما قالت لها أمها أن تشكر النبي صلى الله عليه وسلم على ما جاء به الوحي من تبرئتها رفضت أن تشكره وقالت إنها ستشكر الله لا النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان قد شك بها. ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يطلب أبداً بأن يعامل بأي طريقة خاصة، وكان يحاول أن يلبي طلبات زوجاته العديدة، ومع الوقت، تغير الوضع، إذ إن الانتصارات التي تم إحرازها وكثرة الأنفال قد جلبت شيئاً من البحبوحة إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت زوجاته قد بدأن يطلبن المزيد، حيث بدا لهن أن ذلك تعويض عادل عن القيود الموضوعة عليهن بشأن مظهرهن وحركاتهن جراء مركزهن.

وقد تسارعت الأحداث بسبب مجيء الجارية ماريّا التي أهداها المقوقس للنبي صلى الله عليه وسلم (6). كانت ماريّا خارقة الجمال، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من زيارته لها، فأثار ذلك غيرة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تتردد عائشة

وحفصة - رضي الله عنهما - في انتقاد ماريّا وموقف النبي ﷺ عندما كانا نتحدثان مع بعضهما في غيابه، في أول الأمر قرر النبي ﷺ نقل مسكن ماريّا بعيداً إذ إن تلك التهجّمات كانت تؤلمها، وبعد فترات من الوقت، مع ازدياد الوضع سوءاً، وعد بأن يفترق عنها، لكن الوحي أثناه عن ذلك القرار الذي أجبر النبي ﷺ نفسه على اتخاذه، طلب من زوجاته الاختيار بين البقاء معه أو الطلاق⁽⁷⁾. هذا الوضع المتأزم أصاب الزوجات والكثير من الصحابة بالجزع، بمن فيهم عمر رضي الله عنه، حيث إن النبي ﷺ اعتزلهن، ورفض رؤيتهن مدة شهر تقريباً، إلى أن مارسن الاختيار، مثلما أمر الوحي، فقد اخترن كلهن «الله ورسوله»، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - عندما سأله النبي ﷺ (حين تلا الآيات التي نزلت عليه بشأن زوجاته ومستقبله)⁽⁸⁾.

لقد كانت ماريّا الجارية اختباراً لزوجات النبي ﷺ، ففي الحياة الخاصة، كما ذكرنا، كان بإمكانهن التفريق بين مركز محمد ﷺ بصفته نبياً وكونه يظل بشراً يمكن توجيه النصيحة إليه ويمكنهن مراجعته بل حتى مجادلته، لكن لم يكن بوسعهن محاولة استخدام مركزه بصفته نبياً في الحياة العامة للحصول على حقوق أو معاملة خاصة من الجماعة، كما أن الوحي ذكرهن بأن كونهن زوجات لنبي أو لرجل تقي لا يؤهلن لأن يزعمن بأنهن حصلن على صفات الإيمان وأن يعتبرن ضمناً أنهن مصطفيات: فزوجتا نوح ولوط كانتا من الضائعين بينما نجت امرأة فرعون لتقواها، رغم أنها كانت تعيش مع رجل متكبر جبار لا يعترف بوجود الله⁽⁹⁾. ففي كل زوجين تكون مسؤولية وخيارات وسلوك كل زوج هو الذي يحدد مصيره

أو مصيرها. بهذا الصدد لم يكن لزوجات النبي ﷺ الادعاء بأي امتياز وكان عليهن الاتصاف بالتواضع، وقد اشتدت فتنة الزوجات بعد أن أصبحت ماريّا أمّاً للصبي الوحيد الذي ولد للنبي ﷺ بعد القاسم وعبد الله (ابني خديجة - رضي الله عنها - اللذين توفيا في سن مبكرة). وقد سمى النبي ﷺ ابنه إبراهيم، على اسم النبي إبراهيم عليه السلام، الذي كان أهل ماريّا الأقباط يعتبرونه أبا التوحيد.

العمرة

انقضى عام على معاهدة الحديبية، وحن الوقت للاستعداد لزيارة مكة حسب نص المعاهدة، وبناء عليه فقد انطلق ألفان من المسلمين مع النبي لأداء العمرة⁽¹⁰⁾. وكان بينهم رجل فقير كان قد وصل من مكة بعيد عودة المسلمين من خيبر وأقام مع أهل الصفة، كان فقيراً رقيق الحال وسماه النبي «أبا هريرة»، لأنه كان شديد الحب للقطط، كان أبو هريرة هذا قد دخل في الإسلام في وقت متأخر نوعاً ما وأصبح واحداً من أكثر رواة أحاديث النبي ﷺ موثوقية واحتراماً.

انطلق المعتمرون إلى مكة وتوقفوا عند حدود الأرض الحرام لينتظروا خروج قريش من المنطقة والسماح للمسلمين بأداء شعائهم بحرية وكان المسلمون يرتدون ثياب الإحرام ودخلوا مكة حينما كان القرشيون يراقبونهم من التلال المحيطة، وطاف محمد ﷺ بالكعبة سبع مرات ثم قام بالسعي سبعة أشواط بين الصفا والمروة، ثم قام بذبح جمل كأضحية وحلق شعر رأسه، وبذلك أتم شعائر العمرة وتلاه بقية المعتمرين. وقد

أراد دخول الكعبة ذاتها، لكن قريشاً لم توافق انطلاقاً من أن ذلك لم يكن جزءاً من اتفاقهم، ولم يخالفهم النبي ﷺ في ذلك، وبقي طيلة مدة إقامته ضمن بيت الله، حيث كان بلال ؓ يؤذن للصلاة خمس مرات كل يوم بصوته الندي القوي، وقد أعجب الكثيرون من قريش المتمركزين في التلال مما رأوه من المسلمين، كما أعربوا عن ذلك لاحقاً، جراء ممارسات المسلمين الدينية البسيطة والمهيبة وسلوكهم.

في هذا الوقت أشهر عم النبي ﷺ، العباس ؓ، إسلامه وعرض على النبي ﷺ الزواج من ميمونة، أخت زوجته التي كان زوجها قد توفي وقبل النبي ﷺ العرض، وكان يرغب في أن يحتفل بزواجه في مكة، لكن قريشاً رفضت بشدة: فقد انتهت الليالي الثلاث، وكان على المعتمرين مغادرة مكة حسب نصوص المعاهدة الموقعة في السنة المنصرمة، فأذن النبي ﷺ: ومنع الصحابة من أن يتفوهوا بأي شيء غير ملائم عن قريش، وغادر مكة إلى المدينة على الفور، وقد أنشأ النبي ﷺ أيضاً، من خلال زواجه من ميمونة علاقة مصاهرة مع أشد خصومه المخزوميين الذين أصبح بينه وبينهم صلة قرابة منذ ذلك الحين.

بعد عودة النبي ﷺ إلى المدينة وعودة الحياة اليومية إلى مجراها، سمع بوصول غير متوقع لثلاثة رجال كانوا قد التقوا في الطريق ووصلوا معاً لمقابلته، فقد جاء عثمان ابن طلحة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص للدخول في الإسلام، ومبايعة النبي ﷺ الذي كانوا قد قاتلوه قتالاً شديداً طيلة سنوات عديدة، وقد سر النبي ﷺ كثيراً بذلك، كما سر جميع الصحابة، الذين كانوا يعرفون مزايا الرجال الثلاثة: فقد كان التزامهم

صادقاً ودون تحفظ ولم يخيب المستقبل ظنهم فيهم، حيث إنه كان حافلاً بما حققوه من نجاح، لقد كان دخولهم في الإسلام، مثل دخول أبي هريرة قبل وقت قصير، ينطوي على دروس عديدة فلم يطو النسيان ماضي أشد أعداء الإسلام بمجرد شهادتهم بواحدانية الله فحسب، لكن ما احتاجه هؤلاء الرجال لاتباع طريق التوحيد لم ينبئ بشيء عن إخلاصهم ومزاياهم المعنوية ومركزهم المقبل داخل جماعة المؤمنين. فبعد أن كانوا معادين للنبي ﷺ ورسالته طيلة ما يقرب من عشرين سنة، طرأ عليهم تحول عميق، وأصبحوا خلال السنتين الأخيرتين من حياة النبي ﷺ، مثلاً للصحابة ولجميع المسلمين عبر القرون من حيث الإيمان ونكران الذات والاستقامة، وهكذا فإن الإيمان - من حيث عمقه وقدرته على تحويل القلوب - لا يقاس استناداً إلى الزمن أو المنطق فصدقه وعمقه يشهدان بطبيعته، ولهذا فإن بوسع شخص حديث العهد في الإسلام أن يبلغ درجة من الاستنارة الداخلية أعمق وأكمل مما يمكن أن يبلغه شخص آخر بعد سنوات من الممارسة الدينية، والعكس صحيح أيضاً وهذا يقتضي من الناس، مرة ثانية، الامتناع عن إصدار الأحكام بشأن قلوب الآخرين.

مؤتة

بعد بضعة أشهر قرر النبي ﷺ إرسال مبعوثين إلى الشمال، للتأكد من ثبات التحالفات القائمة وقدرة المسلمين على السفر إلى بلاد الشام من أجل تجارتهم، فتم إرسال خمسة عشر رجلاً لكن أربعة عشر منهم قتلوا؛ وفي الوقت نفسه، قُتل مبعوث آخر، كان قد أُرسل إلى بصرى

أوقفه زعيم قبيلة غسان وقتله، كان من الواضح أن الخطر من بلاد الشام أخذ في الازدياد وكان لا بد من اتخاذ إجراءات بشأن جرائم قتل المبعوثين المسلمين، فقرر النبي ﷺ إرسال جيش من ثلاثة آلاف رجل، تحت إمرة الرقيق السابق زيد بن حارثة ﷺ - الأمر الذي أثار دهشة شديدة لدى الصحابة، وأضاف أنه في حال قتل زيد ﷺ، يتولى القيادة جعفر ﷺ، الذي كان قد عاد حديثاً من الحبشة، إذا قتل جعفر ﷺ فيحل مكانه عبد الله بن رواحة ﷺ.

سار الجيش وعند وصولهم إلى قرب بلاد الشام، سمعوا بأن أكثرية من القبائل العربية قد تجمعت واستطاعت الحصول على دعم من جنود الإمبراطورية البيزنطية، بحيث أصبح عددهم أكثر من مئة ألف مقاتل. على أن عدد المسلمين كان مجرد ثلاثة آلاف رجل ولم يكن لديهم أي أمل في النصر، لذا عقد اجتماع لتقرير ما إذا كان عليهم أن يعودوا إلى المدينة وإرسال مبعوث لطلب التعزيزات أو مجرد خوض القتال على الرغم من الاختلاف الكبير بين الجيشين، فانطلاقاً من ثقة وحماس بعض الصحابة (بمن في ذلك بوجه خاص عبد الله بن رواحة ﷺ، الذي تحدث وهم في الطريق بأنه شعر بأنه سوف يستشهد)، قرروا المضي حسب الخطط السابقة وألا يخبروا النبي ﷺ بشيء، فوصلوا قرب الأعداء، وأمضوا بعض الوقت في مراقبتهم، ثم قاموا فجأة بتحويل سيرهم باتجاه مؤتة؛ فتبعهم الجنود العرب والبيزنطيون، ظناً منهم بأنهم كانوا ينسحبون. وعند بلوغ مؤتة، حيث كانت التضاريس أكثر ملاءمة، أمر زيد ﷺ الجنود بشن هجوم مفاجئ، للوهلة الأولى أوقعت تلك الإستراتيجية البلبلة بين صفوف

الأعداء لبعض الوقت، لكنها لم تكن كافية لترجيح كفة الميزان لمصلحة المسلمين الذين كانوا أقل عدداً بكثير من الأعداء، وقد قتل زيد عليه السلام، وتلاه جعفر عليه السلام ثم عبد الله عليه السلام وسادت الفوضى بين جنود المسلمين إلى أن تولى خالد بن الوليد عليه السلام القيادة حيث جمع الرجال لحمايتهم من هجوم جديد، كانوا قد فقدوا ثمانية رجال فقط، لكنهم اضطروا للتراجع وكانت هذه هزيمة واضحة. لكن خالد بن الوليد عليه السلام استطاع تجنب مجابهة كان من الممكن أن تنتهي بمذبحة (11).

عند هذه النقطة، تعرض الصحابة الذين كانوا قد بقوا في المدينة إلى تجربة في غاية الغرابة، كانوا يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى منامات ورؤى كانت تتحقق في معظم الأحيان، كانوا يعرفون أنه ملهم وقد تبعوه فيما كان الوحي يتنزل عليه تبعاً، لذا فقد اعتادوا على رؤية الأبعاد الغريبة وفوق الواقعية من حياته بينهم، ففي أحد الأيام، جاء محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، ورغم أنه لم يأتهم مبعوث من الشمال ولم يتلقوا أي معلومات عن الحملة، فقد أخذ يصف لهم المعركة، وكأنه كان موجوداً بين المقاتلين، فأخبرهم والدموع في عينيه وهو يشعر بالألم الشديد عن موت زيد وجعفر وعبد الله - رضي الله عنهم، وأشاد بمأثرة خالد وسماء «سيف الإسلام»، لكنه لم يستطع إخفاء حزنه العميق عند ذكرى الموتى الذين كانوا أعزاء جداً عليه، فذهب إلى أسماء - رضي الله عنها - زوجة جعفر عليه السلام وأطفالها ليلفهم النبأ ويعزيهم، وبدأ يبكي قبل أن يتمكن من الكلام، وانفجرت أسماء - رضي الله عنها - بالبكاء عندما سمعت بموت زوجها، ثم ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أم أيمن وأسامة

وأخبرهم بموت زيد عليه السلام والدموع تملأ عينيه: فقد كان يحبه مثل ابنه، وكانت أسرته عزيزة عليه بشكل خاص.

وبعد مغادرته لمسكنهم خرجت صغرى بنات زيد من بيتها واندفعت إلى ذراعي النبي عليه السلام الذي حاول تعزيتها والدموع تنهمر من عينيه وهو يجesh بالبكاء، وقد دهش أحد الصحابة، سعد بن عباد عليه السلام الذي تصادف مروره بهم، من هذا المشهد ولاسيما من دموع النبي عليه السلام وسأله عن ذلك. فأجاب النبي عليه السلام بأن ذلك كان «شوق الحبيب لمن يحبه»⁽¹²⁾. وكان النبي عليه السلام قد علم أصحابه أن يعبروا عن حبهم وحنانهم، وفي تلك اللحظة في مواجهة فراق الموت النهائي، أعطاهم درساً بشأن الضعف البشري وسمو الدموع التي تعبر عن الحب وألم المحبين.

عاد الصحابة من مؤتة بقيادة خالد عليه السلام وأكدوا رؤية النبي عليه السلام: فقد كانت الأحداث مثل ما رواها. فقد قتل الصحابة وهم يقاتلون. كانت هذه الرؤى وتلك المعرفة علامات أخرى تشهد بصدق نبوة محمد عليه السلام. كان متفرداً ويتصرف بمفرده ولم يكن ذكاؤه ومزايه تشبه ما لدى الآخرين، ومع ذلك فقد ظل متواضعاً وشديد التأثر وكان يبكي، مثلهم.

ظل الوضع صعباً في الشمال، ومن المؤكد أن القبائل العربية ظنوا أن بإمكانهم استخدام هزيمة مؤتة لمصلحتهم، وبلغ محمد عليه السلام أنباء عن قيام بعض القبائل بالاستعداد لشن هجوم واسع النطاق على المدينة. فقرر حشد ثلاثمائة رجل بقيادة عمرو بن العاص عليه السلام، الذين تربطه ببعض القبائل الشمالية صلة قرابة، وطلب منه النبي عليه السلام أن يدرس

الوضع ويعلمه عن حقيقة الأمور، كما أمره بأن يقيم تحالفات مع أكبر عدد ممكن من العشائر، ثم أرسل له مئتي رجل آخرين لأنه بدا أن المقاومة كانت أقوى مما كان متوقعاً، غير أنها لم تكن هكذا، واستطاعت قوى المسلمين الدخول إلى أرض بلاد الشام وتعزيز التحالفات السابقة وإقامة تحالفات جديدة، الأمر الذي أتاح تأمين الجبهة التي كانت غير مأمونة حتى ذلك الوقت.

خرق العهد

كما أوردنا سابقاً، لم يكن ميثاق الحديبية ينطبق على جماعة المدينة وقريش فحسب، بل أيضاً على جميع حلفائهما، كانت خزاعة من حلفاء محمد ﷺ وقد تعرضت إحدى عشائريهم، بنو كعب، إلى هجوم غادر في إحدى الليالي من قبل بني بكر، حلفاء قريش، الذين قتلوا أحد رجالهم. وأرسل بنو كعب على الفور مبعوثاً إلى النبي ﷺ ليعلمه بتلك الخيانة. كانت خرقاً للعهد وقرر النبي ﷺ ألا يدع الجريمة تذهب دون عقاب: كان يجب عليه مساعدة حلفائه من خزاعة.

أما قريش، فقد أدركوا خطورة الموقف وقرروا إرسال مبعوث يمثل أكثر رجالهم نفوذاً لإقناع المسلمين بعدم الرد على تلك الحادثة الفردية. على أن قريشاً كانت قد دأبت منذ توقيع المعاهدة على التعدي على شروط المعاهدة وقيودها، ولم يكونوا يترددون في حث العشائر الأخرى على مهاجمة الجماعة الإسلامية لإضعافها أو حتى ليقوموا بمهاجمتها، غير أن الأمور تجاوزت الحدود هذه المرة، وهذا ما دفع أبا سفيان نفسه إلى الذهاب إلى المدينة للتباحث مع النبي ﷺ. لكن النبي ﷺ كان مقتضياً

ومترفعاً، وحاول أبو سفيان أول الأمر حث ابنته أم حبيبة - رضي الله عنها زوجة الرسول ﷺ، لمساندته، ثم علياً رضي الله عنه، لكنه لم يجد سبيلاً للتفاوض. ولزم النبي ﷺ الصمت وكذلك فعل صحابته، ولم يعرف أبو سفيان كيف يفسر الوضع.

في الأسابيع التي تبعت ذلك طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يستعدوا للقيام بحملة، ولم يفصح لهم عن هدفها، ولم يعرف ما سيجري سوى قلة من الصحاب المقربين، وطلب منهم النبي ﷺ أن ينشروا عدة إشاعات متناقضة، فقد طلب منهم أن يقولوا بأن الجيش سوف يسير إلى بلاد الشام، أو نحو ثقيف أو ضد هوازن، وذلك بغية نشر الحيرة عبر الجزيرة برمتها.

على أنه بعد انتهاء النبي ﷺ من الدعاء في المسجد، جاءته رؤيا تخبره بأن امرأة سوف تفشي السرية حيث إنها تنقل رسالة إلى قريش تحذرهم من الهجوم الوشيك، وقد عمل على اعتراض سبيل المرأة وهي في طريقها إلى مكة وسلمت الرسالة إلى مبعوثي محمد ﷺ. وقرر محمد ﷺ أن يسامح الخائن الذي كتب الرسالة واسمه حاطب على الرغم من رغبة عمر رضي الله عنه بأن ينفذ فيه حكم بالإعدام، وظل حاطب، الذي كان تصرفه بدوافع عائلية، حراً طليقاً، وظل محمد ﷺ يركز على الاستعداد للحرب، وأرسل المبعوثين إلى كافة العشائر الحليفة ليستعدوا للانضمام إلى المسلمين في حملة لم يكونوا يعرفون مقصدها على وجه التحديد.

انطلقت الحملة في شهر رمضان، وفي بادئ الأمر ترك النبي ﷺ للمسلمين حرية الاختيار في أن يصوموا أو لا، أما هو فقد صام حتى وصلوا

إلى مر الزهران حيث عسكروا وهناك طلب من المسلمين التوقف عن الصيام؛ لأنهم سوف يحتاجون إلى كامل طاقتهم، وفي الطريق طلب من أحد المسلمين أن يحمي مجموعة من الجراء رآها على جانب الطريق كي لا يطأها جيش المسلمين، مبيناً بذلك احترامه لحياة كل كائن، ومع أنه من المحتمل أن يبدو إنقاذ بضعة كلاب مسألة تافهة للمسلمين في ذلك الوقت بالذات، إلا أنه كان حريصاً على حماية الجراء من طيش الجنود.

كان معسكر مر الزهران يقع على مفترق طرق، فمن المحتمل أن يكون مقصدهم إلى نجد في الشرق، أو الطائف أو مكة، وقد سمع العباس رضي الله عنه الذي كان قد غادر مكة ليستقر في المدينة، بتحركات المسلمين وانضم إليهم، وعندما أقيم المعسكر، طلب النبي صلى الله عليه وسلم من كل جندي أن يوقد ناراً وذلك للتأثير على معنويات العدو: فأوقد المسلمون عشرة آلاف من النيران ليوحوا بوجود جيش كبير؛ لأنه كان من المفروض أن تلبى كل نار احتياجات خمسة إلى عشرة من الجنود، وقررت قريش، فضلاً عن القبائل الأخرى التي كانت تخشى أن تتعرض لهجوم، إرسال مبعوثين ليستطلعوا نوايا النبي صلى الله عليه وسلم.

ومرة أخرى كان أبو سفيان هو الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش، ومعه مبعوثان آخران هما حكيم وبديل لإقناعه بعدم مهاجمة مكة، وقد تحدثوا مدة طويلة لكنهم فهموا في خاتمة المطاف أن تصميم النبي صلى الله عليه وسلم كان ثابتاً، كما أنهم شاهدوا الصحابة وسلوكهم وجو الصفاء الذي كان سائداً في المعسكر، فقرر حكيم وبديل دخول الإسلام وصرح أبو سفيان بأنه يقبل الجزء الأول من الشهادة: («أشهد أن لا إله إلا الله») لكن لديه

بعض الشكوك بشأن مركز النبي ﷺ؛ فقد كان بحاجة إلى بعض الوقت قبل النطق بالجزء الثاني من الشهادة «أنّ محمداً رسول الله»⁽¹³⁾. وقد أمضى الليلة في المعسكر، وبعد صلاة الفجر، بعد أن شاهد صلوات المسلمين وتفانيهم وسلوكهم إزاء النبي ﷺ، قرر، بناء على نصيحة العباس، أن ينطق بالشهادة كاملة، كان النبي ﷺ يعرف أن هذا التغير لا يزال هشاً وطلب من العباس رضي الله عنه أن يصحب أبا سفيان إلى حافة الوادي كي يرى الجيش الإسلامي وهو يمر به، وهذا أنتج الأثر المرغوب، حيث إنه ترك أثراً عميقاً في نفس أبي سفيان، وقبل ذلك كان العباس رضي الله عنه قد همس في أذن النبي ﷺ مذكراً إياه بأن أبا سفيان يحب أن يكون له ميزة تشرّفه وألا ينسى ذلك، ولم يغب عن بال محمد ﷺ العالم بنفسية الرجال، تلك النصيحة وأعلن بأن كل شخص في مكة يدخل بيت أبي سفيان فهو آمن ومن دخل حرم الكعبة فهو آمن ومن بقي في بيته فهو آمن، أسرع أبو سفيان عائداً إلى مكة قبل وصول الجيش إليها ونصح الجميع (رغم هزء زوجته به التي وصمته بالجنون والجبن، وهزء زعماء آخرين مثل عكرمة ابن أبي جهل والذي وجه إليه الإهانات) بالاستسلام وعدم مقاومة جيش محمد ﷺ غير العادي في ضخامته.

وهكذا فقد حول محمد ﷺ أبا سفيان إلى حليف، لا لأن أبا سفيان دخل في الإسلام فحسب، بل أيضاً لأن النبي ﷺ أخذ بالاعتبار طبعه وشخصيته، فأبو سفيان شهد بوحدانية الله في أول الأمر لكنه وجد من الصعب إيلاء مركز خاص لرجل قاتله واعتبره ندأً له، وكان محمد ﷺ قد فهم ذلك ولم يستعجله، بل أعطاه الوقت لي شاهد ويفهم بنفسه، وحتى

بعد اعتناق أبي سفيان الإسلام، كان النبي ﷺ يدرك أنه كان لا يزال لديه ميل للقوة والمجد وأخذ هذا في الاعتبار حين جعله يشاهد قوة جيش المسلمين وأولاه دوراً خاصاً في الحل المحتمل للصراع، ومع أن محمداً ﷺ كان يصر على المبادئ العامة، إلا أنه كان يستطيع أخذ بعض المزايا في الاعتبار، فقد كانت رسالته إصلاح المزايا من خلال المبادئ، لكنه لم يهمل أبداً الطباع والطموحات والجوانب الخاصة التي تكون شخصية كل فرد. فرسالته تصر على المساواة للجميع، فضلاً عن سيكولوجية الاختلافات وفردية كل شخص في مجال الإيمان.

العودة

يروى معظم الرواة أن محمداً ﷺ دخل مكة في العشرين أو الواحد والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة (630م)، كان محمد ﷺ قد قسم جيشه إلى فرق أحاطت بمكة وأطبقت عليها كلها في المركز. وتمركز بعض جماعات من قريش عند التلال بقيادة سهيل وعكرمة وصفوان، ولكن بعد المواجهات الأولى، أدرکوا ألا جدوى من المقاومة، فلجأ سهيل إلى داره ولاذ عكرمة وصفوان بالفرار، وقد أمر النبي ﷺ بعدم القتال في ذلك اليوم الذي سماه «يوم الرحمة» (14).

قبل حوالي ثماني سنوات، كان محمد ﷺ قد غادر مكة سراً، ولكن بكرامة مرفوع الرأس، وقد عاد الآن إلى مكة في ضوء النهار، منتصراً، لكنه هذه المرة أحنى رأسه وهو على مطيته شكرًا للواحد الأحد وهو يتلو الآيات من سورة الفتح:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝۲﴾ وَيَضْرُكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝۳ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ۝۴﴾ (3).

لقد دخل مكة بكل تواضع وطلب إظهار منتهى الرقة للأعداء السابقين للمسلمين، فاغتسل وصلى ثماني ركعات قبل أن يستريح لبضع ساعات، بعدئذ ركب ناقته القصواء وذهب إلى الكعبة وطاف حولها سبع مرات، ثم أشار بقضيب كان بيده على الأصنام فوقعت الأصنام وهو يردد الآية ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (16). وأمر بإحضار مفاتيح الكعبة وطلب طمس ما فيها من صور وذلك لتكريس بيت الله لعبادة الواحد الأحد الذي لا يمكن تصويره بأي حال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (17).

كانت عملية التدمير التي قام بها النبي ﷺ، من حيث الظاهر، النقيض التام لكل ما درج على فعله منذ مغادرة المكان المقدس لعبادة الله الواحد الأحد، على أن هذه العملية كانت، على صعيد الرسالة الروحية، من ذات الجوهر التوحيدي، إذ إنه بتحطيم الأوثان التي كانت داخل الكعبة وبجوارها كان يحطم ما كان، عبر القرون، قد شوّه عبادة الواحد المتعال، بهذه العملية حول محمد ﷺ الكعبة إلى مسجد حقيقي، لا يعبد فيه بعدئذ سوى الواحد الأحد.

أخذ القرشيون يخرجون من بيوتهم تدريجياً ليتجمعوا داخل الحرم.

وبعد تحطيم الأوثان تلا النبي ﷺ عليهم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» (18). ثم التفت إلى قريش وحدثهم عن قواعد الإسلام وتلا هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (19).

بعدئذ سألهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟» (20) فأجابوا «أخ كريم وابن أخ كريم» فمن المؤكد أنه سيعاملهم بالإحسان (21). هنا تلا النبي ﷺ الآية الواردة في سورة يوسف عندما اجتمع شمله مع إخوته، الذين كانوا يريدون قتله: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (22). ثم قال «اذهبوا فأنتم الطلقاء» (23). لقد صفح النبي ﷺ عن جميع النساء والرجال الذين أتوا إليه أو إلى أحد الصحابة. وقد صفح أيضاً عن وحشي بن حرب، الذي قتل حمزة رضي الله عنه، لكن النبي ﷺ طلب منه أن لا يريه وجهه في المستقبل، ودخل الكثيرون من قريش في الإسلام عند الصفا أمام عمر رضي الله عنه. فقبل بضع سنوات وصم القرشيون النبي ﷺ بالكذب في هذه البقعة نفسها، وعندما جاء عكرمة بن أبي جهل إلى النبي ﷺ حذر النبي ﷺ أصحابه قائلاً: «لقد جاءكم عكرمة بن أبي جهل، مؤمناً. فلا تسبوا أباه، لأن سب الأموات يؤذي الأحياء ولا يصل إلى الأموات». وهكذا فقد ذكَّروهم لا بالعفو فحسب، بل أيضاً بأن يتذكروا بأنه لا يجوز اعتبار أحد مسؤولاً عن أخطاء شخص آخر، حتى ولو كان أباه، وهو المعنى الذي تضمنته الآية القرآنية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (24). فالحكمة مطلوبة مثل نبل النفس.

أقام النبي ﷺ في مكة أسبوعين وأخذت الأمور تستقر، وقد أرسل بعثات إلى الذين أعلنوا قبولهم للإسلام الذي أبطل كل عبادة للأوثان. وقد تم تكليف خالد بن الوليد رضي الله عنه بمثل هذه المهمة لدى بني جذيمة الذين استسلموا في خاتمة المطاف، لكن خالداً رضي الله عنه قرر -مخالفاً لرأي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه- إعدام أفراد الأسرة الذين كان يكنّ لهم استياءً شديداً، فبعد إعدام بعضهم توقف بناء على إصرار عبد الرحمن الذي أوضح له بأن الباعث لسلوكه كانت دوافع غير الإيمان بالله والعدل، وقد غضب النبي ﷺ غضباً شديداً عند سماعه بما فعله خالد وقرر دفع دية جميع القتلى وظل يردد بصوت عال. «اللهم إني أتبرأ إليك مما فعله خالد بن الوليد» (25).

كان طريق تهذيب قلوب وضائير مسلمي المدينة ومكة لايزال طويلاً. فقد ظلت العادات المتأصلة والمشاعر المتجذرة تبرز إلى السطح وتتجلى على شكل سلوكيات مخالفة لتعاليم الإسلام، وعلاوة على ذلك، فقد اقتضى دخول المكيين الجماعي في الإسلام جهوداً إضافية في مجال التربية الإسلامية، وقد طلب النبي ﷺ من معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يعطي الأولوية لذلك: كان ينبغي تربية وتعليم الداخلين حديثاً في الإسلام مبادئ دينهم الجديد، من المفارقة أن الوحدة في الضراء التي كانت سائدة حتى ذلك الوقت، كانت أسهل تحقيقاً من الوحدة في الإيمان والمحبة والاحترام التي كان لابد بعد الآن من إرساء قواعدها حيث إنه لم يعد يوجد أعداء رئيسون في المنطقة.

عاد النبي ﷺ إلى المكان الذي انطلقت منه رسالته، لقد تعرض للاضطهاد ثم النفي ثم الحرب وها هو يعود إلى الأهل سلمياً، تحيط به هالة الانتصار، لقد كانت هذه، أكثر من الطريق المادي للحياة، الرحلة الافتتاحية لقلب وضمير يمر عبر مراحل من الجهاد الأعظم الذي ينقل الناس من التوتر الطبيعي للانفعالات إلى سلام التربية الروحية، لقد عاد مختلفاً من حيث عمق جهوده وصبره، ولكن مع ذلك هو نفسه في إخلاصه للرسالة، عندما غادر مكة دعا الله الواحد الأحد وهو واثق من أنه لا بد أن يعود يوماً ما إلى الوطن ليصلي عند عتبة باب الله. وهكذا فقد غادر مكة إنساناً يقوم برحلة حياته وكله قناعة بأنه لا بد أن يعود يوماً ما إلى الأهل، إلى المركز، القريب من قلبه ويعود إلى مصدر الحياة، إلى نبض الحياة في كنف الله.

